منطقة آمنة

نورا بوسونج

رواية

دار نشر زوركامب

سلام

جنيف. فبراير 2017

يضم فندق "بوريفاج" أربع وتسعين غرفة وخمسة عشر جناحًا. تطل النوافذ على بحيرة جنيف، التي ينعكس على صفحتها الناصعة ذلك العالم الكبير المتمثل في تلك المدينة الصغيرة التي تقع على أطراف سويسرا الجنوبية. يمكن أن يقع مركز أوروبا هنا في واحد من تلك الأجنحة أو في قاعة المؤتمرات، التي كانوا قد زينوها في إحدى الأمسيات بزهور غريبة. استقر حوض الاستحمام الخاص بالغرفة رقم 317 منذ مدة طويلة، في مخزن المبنى بعد موت بارشيل، بعدما وضع عليه أحد الموظفين علامة غير صحيحة وتم التخلص منه عن طريق الخطأ. باستثناء هذا الحادث، لم تحدث في هذا المبنى أية حوادث مؤسفة إلا نادرًا. عندما ابتعدتُ عن الآخرين قليلًا، وتركتُ بصري يجول في أرجاء المكان، تأمَّلت أوراق الزهور الحمراء المنحنية حوافها على ذاتها إلى جانب المنصة، ووجوه الخدم سُمر البشرة، متراصون كشجر الأرز في زوايا المكان في شكل ديكوري، ليعيدوا إلى الأذهان عصر الاستعمار في حقبة انحطاطه البهيجة، يقفون بوجوه مشرقة يعلوها أمارات الظفر، كأنهم شخصيات في إحدى مسرحيات "موليير"، يعرفون أن الروابط وعلاقات الحب والأصول تختلف تمامًا عمّا يريد الحكام أن يجعلوننا نعتقده، كان في إمكاني كذلك أن أغض الطرف عن ذلك الرجل، أو على الأقل أتجاوز قراءة اسمه المدوّن على قطعة البلاستيك المثبتة على طية صدر السترة، ذلك الرجل

الذي بدا لي مألوفًا وقريبًا وهو يمر قبالتي، إلا أنني عجزت للحظة عن التعرف عليه.

تذمر السيد المفوَّض قائلًا لا يجب تجميل الأمور، بل ليس مسموحًا بذلك، وأخذ يعدد النجاحات الجزئية المتواضعة التي تحققت في جنوب السودان، ورشف رشفة من كأس الماء أمامه. تركت بصري يتجه ثانيةً إلى الرجل الواقف إلى جانب زهور الزينة المرتفعة عاليًا، ولاحظت حواجبه المرفوعة، والتعبير الغامض على وجهه. عندها أدركتُ أننا كنا قد تشاركنا مائدة الغداء يوميًا لفترة من الوقت، حين كان شعره لا يزال طويلًا، وملامح وجهه تشع شبابًا.

وبينما أخذ السيد المفوَّض يؤكد أنه ليس مسموحًا أيضًا أن يتراجع المرء أمام ما قد يبدو له مستحيلًا، كنت لا أزال أحدق في "ميلان"، حتى بادلني النظرات أخيرًا، فبدا عليه التعجب في البداية، لكنه لم يلبث أن تعرف عليَّ سريعًا في اللحظة التي تعرفت عليه فيها. قاطعتني حينها كلمة السيد المفوَّض على المنصة وهو يقول: إلا أنه...! ابتسم "ميلان" في تهذيب. كان في إمكاننا أن ننصرف من هذه الأمسية دون أدنى ضرر. شعرت ببعض التعب قرابة الساعة الحادية عشر. انصرفت وأدخلت شفرة باب غرفتي في لامبالاة، سمعت عقب ذلك وقع أقدام آتٍ من طابق يعلوني بثلاثة طوابق. اختلط وقع الأقدام بلا نظام. ربما لايزال أحد الزملاء متيقظًا، وربما يسير وهو يحادث أحدهم في الهاتف.

عندما أعود بذاكرتي اليوم إلى تلك الأمسية، أرى زهور عصفور الجنة المدببة حولي في كل مكان، والتي يطلق عليها بالألمانية "شترليتس"، كأسها كمنقار الطيور متجه إلى الأمام، ونوارها كمجوهرات تزيّن الرأس في شكل لا مركزي

ومرفوع إلى أعلى، تطل في ذاكرتي وهي تنتشـــر في كل مكان في القاعة، ربما بشكل أكثر كثافة مما كانت عليه في الحقيقة.

مُنحت هذه الزهور اسـمها في الماضــي تكريمًا لأميرة ولاية "مكلنبورج شـترليتس"، كما قرأت بعد ذلك بشـــهور في محاولة مني لاســتعادة طيف "ميلان"، الذي عاد واختفى من حياتي ثانيةً، وسعيًا مني لإدراك كل الأمور بصورة أوضـح. ربما كان من الأفضـل أن أصـرفه عن فكري، لأن تلك الأطياف تفرض سطوتها علينا، إنها تتجاوز قدرات عقولنا المرسومة على شكل مربعات صـغيرة. يسيطر شبح "ميلان" سيطرة تامة على ما تبقى مني، وكأنه لا يستطيع أن يدع شيئًا يفلت من قبضته، حتى ما لم يعد يعنيه، يســـيطر على ما تبقى من وقت فراغي في المســـاء، ذلك الوقت الذي كنت أقضـيه في شقة شديدة الصـغر باهظة الثمن، وعلى ما تبقى من عملي المكتبي البسـيط، البسـيط على الرغم من كل الأسـماء القادمة من كل أنحاء العالم والواردة في التقارير التي أرفعها لرؤسائي.

تبقي لـــ"ميلان" شهور قليلة في جنيف قبل أن يرحل في الخريف إلى لاهاي، كما حكى لي بطريقة لا يســعني وصــفها بقلة التهذيب، وإنما كانت أقرب إلى التحفظ الشــديد، وكأنما يصــر على أن تقتصــر علاقتي به على الماضــي فحســب، ولا تتجاوزه إلى المسـتقبل. كان "ميلان" قد اتفق مع شـركة الشـحن، ووعد زميلًا من صـربيا بشقته. يوجد في متنزه أريانا، تلك الحديقة الواقعة خلف قصـر الأمم، ثلاثة عشـــر طاووسًـــا، إلا أن أحدًا لم يتمكن حتى الآن من الجزم بأي تلك الطواويس يمكن أن يكون هو الســاحرة الشــريرة، ولا حتى "ميلان"، على الرغم من أنه جمع كل الحكايات المروية عن الطواويس، كما كان زملاؤه يجمعون الإحصـــائيات. روى لي أنه عندما كان لا يشـــارك في جلســـات مجلس الأمم المتحدة لحقوق

الإنسـان، كان يتتبع تلك الطيور، يتتبع مشـيتهم المترنحة المزهوة، ويراقب العيون المتصلبة من بين ثنيات الريش البراق.

وقفنا بعيدًا بعض الشـــيء بجانب النافذة الخلفية للقاعة أمام واحدة من الســـتائر المخملية السميكة الحمراء. في حين اتجه زملاؤنا لالتهام شرائح سمك السلمون في أوعية الكسـكســي. ربما سـبق وأن أكلوا شـطيرة في مقصـف القصـر في وقت الظهيرة، أو في ســـاعة متأخرة منها، أو تناولوا وجبة كوردون بلو في أحد مطاعم جنيف. وها هم يتصـــارعون في إصـــرار الآن على الطعام، في محاكاة وقحة، وكأنهم يقفون أمام إحدى قوافل الأمم المتحدة للإغاثة، بينما هناك لا يوزع النُّدل المتأنقون أوعية خزفية ومناديل ســـفرة، بل عبوات طعام مغلفة توزع في الخيم الزرقاء داخل الأماكن المعروفة بأنها تعاني من كوارث بســـبب نقص المواد الغذائية.

وقف "ميلان" إلى جانبي، وقد مال قليلًا إلى الأمام، وثنى كف يده في شـــكل مقعر، وكأنه يحمل داخل يده كِسَرة خبز غير مرئية، يريد أن يطعم بها الطواويس التي تعيش حياتها الغامضـــة في أماكن انتظار السـيارات المخصـصـــة لموظفي الأمم المتحدة فقط. كان مالك هذه الضـــيعة، غالبًا السـيد "جوســتاف ريفيولد دو لاريف"، قد أوصـــى قبل ما يربو على مئة عام أن تظل هذه الســـاحة مفتوحة ومتاحة، لكن آنذاك لم تكن رابطة الشعوب قد تأسست بعد ولم تكن قد فشلت بعد، ولم يكن أحد لديه فكرة أن المدن التي دُمرت إبان الحرب الألمانية الفرنسية، والتي أطلق عليها هنا الحرب الفرنسـية–الألمانية، لم تكن سـوى مجرد إرهاصـة سـاذجة لما سيجلبه القرن العشرين.

لفت "ميلان"، في فخر شديد، نظري إلى أن كل طاووس له اسم خاص به، وكأن الملوك والقياصـرة والدكتاتوريون الذي حكموا تلك البلاد، التي لم يرو أحد سِـيَرَها، يتبخترون في تلك الحديقة في فخر ولامبالاة ويتباهون بجمالهم، متجاهلين كل من يحكمونهم ويمثلونهم في داخل هذا المبنى البرّاق. عندما مال "ميلان" مقتربًا مني، ومسَّ مفصل يدي، تراجعتُ منتفضة، فقد بدت لي هذه اللمسة الرقيقة غير متوقعة ومزعجة.

لا أدرى إن كان بدافع التعب أم أنها تلك الثقة التي امتدت جسورها بيننا منذ وقت طويل، لكنه استند إلى أحد الأعمدة بجانبي، عاقدًا ذراعيه أمام صدره. ربما تكون تلك الزاوية تحديدًا هي التي تجعل تلك الحركة تعطي انطباع ثقة وتغافل الفائزين كما خبرتُها من بعض الزملاء، وكما أتخيل الفرسان الحاكمين الذين كانوا يتحدثون أمام أميرة "مكلنبورج شـــترليتس"، عندما كانوا لا يولون اهتمامًا لأية مظاهر أخرى من مظاهر السلطة، وإنما بحركات الجسد الصامتة التي تتلائم مع ورود الأميرة بشكل أفضل، وتبدو اليوم غير مفهومة إطلاقًا مثل كل موضة منقضية.

يكبرني "ميلان" بحوالي ثمان ســنوات، أي ما يقل عن نصــف عمر جيل، وعلى الرغم من ذلك كان قد اســتقر منذ زمن بعيد في حياة رتيبة ســببها منصــبه في مجلس الأمم المتحدة لحقوق الإنســان، بعد كل الســنوات التي كان قضــاها في الضفة الغربية والموصل في المكاتب التي كانت بمثابة مأوى من الغارات الجوية، كما أن حياته الآن صــارت أكثر رتابة بعد زواجه وإنجابه طفلًا، وهو ما قاده إلى اســتبدال جنيف بتلك البقاع التي تســيطر عليها الأزمات، وإلى انتقاله الآن كذلك إلى المحكمة الجنائية الدولية في هولندا، وإنهاء خدمته في الأمم المتحدة بنهاية الصــــيف. قال لي "ميلان" إنه لم يقلع بذلك عن اشــــتياقه للحروب إقلاعًا تامًا،

وأضاف أنني بالتأكيد سأعرف تفاصيل أكثر عن عمله حتى لا أسيء فهم مقولته، فهو لا يتمنى طبعًا اندلاع الحروب، ولكنه يتمنى أن يرتحل إلى الأماكن التي تندلع فيها تلك الحروب، فهو يكاد لا يتحمل الجلوس هنا على المكتب ليقرأ تقاريرًا وأرقامًا وليس له أن يقوم بأي شيء غير أن يطعن عليها ويعيد إرسالها. قال لي: تطوير الاستراتيجيات، أنت نفسك تعلمين أن الاستراتيجيات لا تفلح أصلًا في موقع الحدث، فكيف لها أن تؤثر من موقعنا هذا؟

في حركة أنيقة ترك النادل مناديل السفرة ترفرف فوق طاولة البار، لاحظت أنها مخطوط عليها بلون أرجواني كلمات *بوريفاج جنيف 1865*، ومرسوم عليها حمامة صغيرة تفرد جناحيها على أحد الأعمدة، ووضع لنا فوقها أقداح مشروب المارتيني. فيما بعد لم يعد ممكنًا معرفة أي خطوة قد أدت إلى الأخرى، وأي حركة قد تبعت الحركة السابقة بالضرورة، وفي أي لحظة لم يعد في الإمكان العودة إلى الوراء، بل فقط الإبقاء على إتباع خطوات الرقصة الحتمية. لكنني متأكدة اليوم أنها كانت فكرة "ميلان" أن نعرج على البار، على الرغم من أنه كان اقتراحي أن نتناول مشروبًا، وسألته حينها إن كان مضطرًا للرحيل غدًا في وقت مبكر، وتساءلت إن كانوا سينتظرونه في المنزل، قلت ذلك لا مبالية تقريبًا بالإجابة، فزوجته لم تكن تهمني كثيرًا. كل ما كنت أرغبه هو ألا أذهب إلى بيتي، حيث أرقد بين تلك الجدران البيضاء الخانقة فوق الأريكة البيضاء هي الأخرى، لأقرأ الجريدة حتى يتمكلني التعب وأخلد إلى النوم. حتى وإن كان هذا اقتراحي، فهو من أحضرنا إلى هذا المكان وأخذ يلقنني الكلمات، ويقول إنه لن يفتقدنا أحد في قاعة المؤتمرات.

قال "ميلان": الكثير من الصراعات، والكثير من النفقات، لكن الناس يريدون إنفاق أموالهم على أشياء أخرى، بينما نحن هنا نراقب كيف يتجه هذا المشروع الجميل،

المسمى الأمم المتحدة، إلى نهايته. ثم سألني وهو يقرع كأسه بكأسي: هل علينا أن نتحلى بالصبر أم نفقده؟

قلت: أجولة الرمل مكومة كحواجز منذ أربعين عامًا في نيقوسيا، لكن إطلاق النار قد توقف، وهذا شيء مهم في حد ذاته. والجنود هناك لا يفعلون شيئًا سوى الوقوف هناك في مزاج سيء، وعلى الرغم من ذلك يسمحون لك بالعبور. الأمر يبدو وكأن الأطراف كلها تمثل لعبة الحرب، لكننا ننسى بسهولة أن هناك جبهة مواجهة بالفعل، في منتصف قبرص تحديدًا.

لم أذكر له أنني سكنت بمفردي لمدة عامين في شقة بالإيجار فوق متجر أغذية هندي، كان ذلك في مدينة "سيرفيت" السويسرية. تقع الشقة على بعد ثلاث محطات من محطة القطار، حيث يعيش أولئك الناس الذين لا يعملون كرجال قانون أو دبلوماسيين لدى منظمة التجارة العالمية أو منظمة الأمم المتحدة. لم أذكر ذلك لأنه كما كان الحال في طفولتنا، كان أمرًا محرجًا بالنسبة لي أن أصرِّح أمام "ميلان" بهذه الحياة غير المكتملة التي لم أنجح في ترتيبها على نحو أفضل، والتي لم تحظ حتى بجمال بساطتها الحزينة، وتبدو كشقة يقطنها شخص ليس لديه أقل ذوق في الأثاث، لكنه يفهم على الأقل كيفية توفير أثاث مؤقت من الكرتون والصناديق، والمرتبة بدون أضلاع للفراش، بدلًا من ملأها بقطع أثاث غير مناسبة. تساءلت إن كان شعور الإيثار فحسب هو ما دفع به في حقيقة الأمر إلى الموصل ثم إلى الضفة الغربية. بينما أنا أتساءل وأتساءل عن سبب حلولنا نحن الاثنين في هذا المكان، في البوريفاج، بل في جنيف من الأساس، في مكاتب لم يكن يفصلها عن بعضها سوى بعض الأقسام القليلة والمفاهيم البيروقراطية، يفصلها أيضًا ثمان سنوات، وطموحات "ميلان"، وربما أيضًا بعض

الاضطرابات. لكنني عرفت بالطبع أنها ليست هذه الأسباب وحدها لدى أيٍ منا، لا الصدفة ولا الإيثار، حتى وإن كنت لا أعرفه بالقدر الذي يجعلني أخمن ما دفعه إلى ذلك حقيقة.

قال لي "ميلان" وهو يرافقني إلى المخرج عبر تلك الردهة الرخامية الشاسعة إنه لابد وأن تنتابنا القشعريرة عند رؤية تلك العيون الوهمية التي تظهر على ذيول الطواويس المنشورة، تمامًا مثل شعورنا عندما يعطي شيء غير حي انطباعًا حيًا. لكن ذلك التناسق وذلك الأزرق الملكي البراق يثير حيرتنا أكثر. هذه الحيوانات فهمت أفضل منا بكثير أن الجمال باعث للخوف أو الملل، فكل ما له اعتبار السريان نصل له عن طريق التعارض، ليس عن طريق الشقاق، وإنما عن طريق التناقض. قال ذلك وهو يودعني ويقبلني على وجنتي ثلاثًا كما جرت العادة في سويسرا. التمعت الشوارع المبللة بفعل المطر في ضوء كشافات سيارات الأجرة المارة، ثم وجدتني أقف وحيدة، أتطلع إلى واجهات المباني، وإلى الشرفات المعلق فيها أصص الورود، النرجس والخزامى، وإلى جبال جورا التي تحيط بالمدينة.

بون. يناير 1994

كانت هناك صـــورة أعلى فراشـــي في طفولتي، تصـــور دمية مهرج خشـــبية بزيه المنتفخ الواسـع المزركش بأشـكال المعين الهندسـية الصـفراء والزرقاء بتلك النظرة التائهة البادية على وجهه، مرتديًا قبعة داكنة فوق رأســـه، يبدو من تحتها شـــعره أحمر اللون. أما في منزل والديّ ميلان لم تكن هناك صـــورة أعلى فراشـــي، وإنما نافذة في سـقف الغرفة المائل، تشـير إلى السـماء، وتبدو عند حوافها السـفلية قمم الأشجار.

في أثناء إجراءات طلاق والديّ أرســـلاني للإقامة لدى صـــديقة لوالدي لبعض الشـــهور، في تلك الأرض النائية عن المدينة، النائية عن كل شـــيء. رأى والدي حينها أن إقامتي في بيت آخر به أطفال غيري من شـأنه أن يجعلني أفضـل، أو هكذا أراد أن يرى على الأقل، على الرغم من أن ميلان كان طفلًا وحيدًا، علاوة على أنـه وقتهـا لم يكن طفلًا. لكن والـديّ كـانـا مشـــغولين للغـايـة بـالنزاع على الممتلكات، تلك الأموال التي عنت لهما الكثير في أثناء زواجهما، لدرجة لم تجعل أحدًا منهما ينتبه إلى أن مثل هذا الصبي لا يستطيع التعامل مع طفلة في الصف الثالث بشـكل أفضـل من غيره، ولم ينتبهوا إلى أن ثمان سـنوات هي حياة كاملة بالنسبة لطفل.

أرادا أن يبقياني بعيدة عن خلافاتهما، وكأنني لم أعايش تلك الخلافات بينهما لسنوات عديدة، ولم أكابد ذلك السكون المسيطر حين سار كل منهما في طريقه. وعلى الرغم من كوني طفلة، فقد أدركت أنهما قد اختارا هذه الطرق المتباعدة ليفرَّ كل منهما من الآخر قدر الإمكان، وحينما صـارت الأمور بينهما لاتحتمل. يومها زج بي والدي داخل السيارة. تسربت إلى أنفي رائحة عطر ما بعد الحلاقة الخاص

به، عندما انحنى مائلًا بجسده في سيارته التويوتا ليحكم غلق حزام الأمان الخاص بي، وهو ما كان توقف عن فعله معي منذ ذهبت إلى المدرسة.

مررنا في سيرنا في الضواحي البعيدة على المباني الرمادية التي ترجع إلى ما بعد الحرب العالمية. رأيت عبر النافذة ميناء الحاويات أيفلتور، ورافعات الجسور المطلية بالرمادي، المعلق فيها الخطاطيف في سكون في هذا الوقت المبكر من الصباح. لا قطارات ترتحل في هذا الوقت، تبدو المدينة كمدينة أشباح بكل تلك الحاويات المكدسة التي ترتفع إلى جانب الطريق السريعة. لم يمر وقت طويل حتى حصلتُ على غرفة أكبر، عالم أكبر، عندما عرفته، ورأيت أنه علاوة على ذلك يقع على أطراف المدينة الصغيرة، هالني ما وجدته فيه، مثل تلك اللهجة التي لم أفهمها على الرغم من أنها لغتي الأم أو على الأقل لها صلة بها.

لم يكن البيت بيتًا، وإنما فيلا باهتة ومهيبة، مبنى ينتمي إلى عالم الأساطير، بل هو أقرب إلى عالم ألف ليلة وليلة منه إلى عالم حكايات الرعب لدى الأخوين جريم. أما لوسيا صديقة أبي فكانت مثالًا للجمال الصارم الهارب لتوه من منشور إعلانات يعود للخمسينيات، لم أجرؤ يومًا على تخيل شعرها الداكن المرفوع لأعلى منسدلًا. يبدو الكثير هنا وكأنه يعود إلى عصر آخر. الغابة التي يعيش فيها ثلاثة من الماعز وغزال، وآداب المائدة الصارمة التي يؤديها لوسيا وميلان بظهر منتصب، وقطع الأثاث المطلية في الأغلب باللون الأبيض الكريمي، وصورة جد ميلان المعلقة على أحد الحوائط والتي يبدو فيها كفاه القويتان المتورمتان. وجدت نفسي أعاود التطلع لتلك الصورة مرارًا وتكرارًا وأتخيل أنه لابد كان يعمل حرفيًا أو ربما فلاحًا قبل أن ينتقل إلى هذا المنزل، وهو ما لم تثبت صحته، كما سأعرف من ميلان بعد مرور ما يقرب من ربع قرن. بل سأعرف كذلك أن جده قد اشتاقت

نفسه إلى ممارسة أعمال مثل قطع الأشجار وتهذيب القشور، التي طالما أبعدته عنها التزامات وظيفته كواحد من موظفي الدولة المرموقين، وكان كلما سمح له روتين يومه القاسي المقيِّد، يمارس تلك الأعمال، لكن ذلك لم يكن يحدث كثيرًا. أما كفاه فكانتا غليظتين مكتنزتين منذ ولادته وليستا متورمتين، لأنه لم يكن يبذل الكثير من الجهد حينها، على الأقل جسديًا.

جلسنا إلى المائدة الكبيرة كستنائية اللون. لم يمكن مسموحًا لي أن ألعب أثناء جلوسي إليها تحت أي ظرف من الظروف، كما سبق وحذرتني مديرة المنزل، تلك السيدة القصيرة المكتنزة التي تعاملني بلطف ولا تلبث أن ترمقني بعد لحظة في برود يثير رعبي. أوضحتْ لي أن هذا الخشب باهظ الثمن، لكنني لم أر فيه سوى أنه داكن لدرجة كئيبة.

جلس داريوس قبالتي يقضم شرائح الخيار، وهو ما أثار حيرتي أكثر من أي شيء. لدينا في المنزل لم نكن نقدم الخيار مع الحلوى، ولا شرائح توست أبيض وطري مرصوصة فوق الصحاف الهرمية. ارتشف أبي قهوته في تحفظ وهو ينظر إلى داريوس كأنه تلميذ صغير، وهو يحكي عن رحلاته التي قادته إلى سويسرا ونيويورك وإلى دول أخرى لم أكن قد سمعت اسمها من قبل. بدا لي وكأن داريوس قد سافر في الأسابيع الأخيرة ربما أكثر مما فعله والداي طوال حياتي معهما، وإلى بلاد أبعد كثيرًا مما سمعته من أي أحد قبله حتى الآن. وبينما أتابع حكي داريوس المتقطع، الذي يدعمه بإشارات معقدة من يده، وهو يلتقط بها المزيد من شرائح الخيار من فوق الصفحة، ينظر أبي في صمت إلى أظافر يده. فهمت حينها تمامًا أنه كان قد ذهب بالفعل، ذهب دون أن يصطحبني.

قال داريوس: أتعرف؟ عندما يكون المرء هناك مرة، لا يمكن له أن ينسحب بسهولة. لقد كنت في خدمة القيصر حقًا، إذا أردت القول.

ضحكت لوسيا ونظرت إليه سريعًا دون حماس، وكأنها قد لاحظت لتوها أنه يلائم بالفعل زمن الملكية المنصرم أكثر من جمهورية الثمانينيات الاتحادية، حيث وُجدت أسلاك التليفون المعقودة ومكعبات اللعب وسيارة التويوتا كورولا وكل تلك الأشياء اليومية المعتادة التي لم يكن أحد يسأل عنها، وبالأخص داريوس.

همس لي ميلان: أتعرفين أن ألمانيا كان يحكمها قيصر يومًا ما؟

صحت: وزوجته سيسي اغتيلت في جنيف على رصيف المرفأ.

لاحظت لوسيا أنني أهتم بجرائم القتل.

وأضاف ميلان أن هناك من هم في مثل سني ويهتمون بالديناصورات، وهو ما له علاقة بالقتل بدوره.

تساءل داريوس: لماذا هذه الصغيرة شغوفة هكذا بجمع معلومات عن النمسا تحديدًا.

أصابني الوجوم عندما شعرت بنظرته لي، ورفضت أن أتناول ذلك التوست القطني الموضوع أمامي على الرغم من التحذيرات المتكررة. بعد وقت قليل رأيت عبر نافذة غرفة المعيشة أضواء كشافات التويوتا. شببتُ على أطراف أصابعي وتمسكت بحافة النافذة المرتفعة للغاية، ولم تلبث أضواء السيارة أن اختفت خلف منعطف المخرج الطويل.

مع حلول المساء ظهرت سيارات أخري واصطفت بجانب بعضها البعض في تلك الساحة أسفل نافذة غرفة المعيشة. اصطحبني داريوس ومعي ميلان إلى الخارج على الرغم من اعتراض ميلان، لأنه لم يكن لديه الرغبة في مثل هذه الجولات، لكن داريوس دفعه إلى الأمام بضربة قوية على كتفه. سرنا على امتداد أطراف الغابة، ثم دلفنا إلى الإسطبل، حيث يقبع الغزال. أنهضه داريوس، فقام بساقه المكسورة، وقربه منه ورفعه إلى أعلى، كما حكى بعد ذلك لرجال الصحافة المنتظرين. لم تكن هناك سوى سيدة واحدة تشد بطانة كتف سترتها القصيرة وتتأمل الحيوان في ارتياب. اقترب داريوس من السور ممسكًا في يده زجاجة الرضاعة، وقرب مقدمتها من الغزال الصغير. بعد قليل من التردد الخَجِل التقمها في فمه وأخذ يشرب اللبن. التُقطت الصور. زفر ميلان. أشار لي داريوس لأقترب منه وأربت على الغزال. مددت يدي في تردد وسمعت أزيز التقاط الصور من خلفي، والتي رصدت الظهور الأول والوحيد لي في الصحافة المحلية.

لم يكن في مقدوري وقتها أن أصرح بانطباعي عن داريوس، لكن مما أثر فيّ حينها أن هناك الكثير من الناس يهتمون به، وأنه يظهر في الصحف، وهو ما كان بالنسبة لي ضرب من ضروب الخيال كظهوره في رواية على سبيل المثال. عندما اجتمعنا على مائدة العشاء لم أستطع منع نفسي من مراقبته، وكأن طريقته في دهن الخبز بالزبدة يمكن أن تشي لي كيف له أن يظهر على صفحات جريدة جنرال أنتسيجر وهو يجلس إلى هذه المائدة، على الكرسي الخامس، الذي كان جلس عليه والدي قبل ساعات يرتشف قهوته.

كانت عينا داريوس من العيون المائية، وجلد أسفل عينيه رمادي اللون. لا يبدو عليه الإنهاك في الحقيقة، وإنما يشوب تصرفاته بعض الجمود فحسب، لكن يديه

تطوفان في كل مكان، على صحاف المائدة وحواف الكؤوس وكعوب الكتب. وفي الأشـــهر التالية، كلما مررت متســـللة من أمام غرفة مكتب داريوس أشـــعر بنقر أصابعه خلف الباب الخشبي الداكن اللامع، ذلك الباب الذي يبدو أنه يخفي خلفه كثير من البلاد والمدن. وطالما تمنيت أن أعرف أكثر عن تلك الرحلات التي يغادر المنزل من أجلها في الرابعة فجرًا. أردت أن أعرف كيف تبدو حياته هناك، وكيف هي أحوال الناس، وهل هناك ناطحات سحاب، وهل تسير السيارات هناك أسرع أم أبطأ من هنا. لكن داريوس لم يكن ذلك الشخص البالغ الذي يرغب أي طفل في الحديث معه.

ســـافر ميلان يوم الأحد مع فريق الهوكي لأحد مباريات المران بالقرب من مدينة آخن، وجلس ثلاثتنا مســـاءً إلى مائدة عليها صـــحاف هرمية بها الحلوى وخبز التوست. أصابتني رابطة عنق داريوس، ذات النقشة المشوشة، بالدوّار، وربما لذلك الســـبب كنت أعاود التطلع له باســـتمرار. أخذت أفتت قطعة الكيك الرملي أمامي، حتى ضغطت لوسيا على يدي ونهتني عن اللعب بالطعام.

عندما رن جرس الهاتف وخرجت هي، بقيت وحدي معه. واصـــلت النظر إلى رابطة عنقه، وإلى خطوطها فيروزية اللون، وهي تدور داخل بعضـــها كالدوامة. سمعت صوت قشرة الخيار وهو يقضم قطعة جديدة.

قال لي ختامًا: كيف هو مستوى تقدمك في الهندسة؟ كنت قد وصلت لتوي حينها إلى قواعد الحســـاب الأســـاســـية الأربعة. ســـألته، في محاولة مني لإخفاء عدم معرفتي، إن كانت الرياضـــيات موجودة في كل مكان، حتى في أبعد البقاع التي ارتحل إليها. إن لديهم على الأقل أشـــكال كتابة أخرى هناك، وهو ما عرفته من الكتابات على صناديق الحلوى المغبرة الباهتة في المطبخ.

ضحك داريوس، وكانت أول مرة أسمعه يفعلها.

أوضح لي: ليست الرياضيات خاصتنا، بل هي بالأحرى الرياضيات خاصتهم، وقد أخذناها نحن عنهم. تمنيت للحظة أن يكون قد حان الوقت ليروي لي عن المدن التي يرسل منها في كل مرة بطاقات بريدية، كأنما يريد توثيق رحلته، ويحضر معه الحلوى والهدايا الرخيصة التي لا تنال إعجاب أحد في البيت، كالسجاجيد الصغيرة، ومنافض السجائر ذات الرسوم الفلكلورية، والريش، وفتاحات الخطابات، وكل هذه الأشياء التي سوف أصطدم بها فيما بعد كلما فتحت أحد الأدراج.

سألته: تخص من إذن؟

تأملني لوهلة وهمّ بالحديث، عندما عادت لوسيا إلى غرفة الطعام، فانحلَّ هذا الموقف المعلق.